التربية من أجل التنمية المستدامة في مرحلة الطفولة

أد. علي أسعد وطفة
جامعة الكويت كلية التربية

"للمضي قدما، يجب علينا أن ندرك، أنه في خضم التنوع الكبير من الثقافات وأشكال الحياة الإنسانية، أننا نشكل عائلة بشرية واحدة، تعيش على أرض واحدة، ويحكمها مصير واحد مشترك. وعلينا أن ننضم معا لنعمل من أجل إقامة مجتمع عالمي مستدام، يقوم على احترام الطبيعة، وحقوق الإنسان العالمية، والعدالة الاقتصادية، وثقافة السلام".

("ميثاق الأرض، الديباجة).

البريد الإليكتروني
watfaali@hitmail.com
الهاتف - 0096599567650

ملخص الدراسة:

شهدت العقود الماضية استقطابا للنشاط السياسي والعلمي حول المسائل والقضايا التنموية والبيئية التي تهدد أمن الإنسانية ووجودها في الألفية الثالثة. وقد تضافرت جهود المفكرين والسياسيين والإعلاميين وتكاملت في تناول هذه القضايا، من أجل التأصيل لمنظومات فكرية وسياسية قادرة على مواجهة التحديات العالمية التي تتعلق بالمناخ والبيئة وحماية الطبيعة ومحاربة التلوث والبحث عن الطاقة النظيفة، وهذا يشمل بالضرورة القضايا الاجتماعية المتعلقة بالعدالة والسلام والديمقراطية.

ويأتي بحثنا هذا لمناقشة قضايا التربية والتنمية المستدامة، مع التركيز على الدور المهم الذي يمكن للتربية المبكرة أن تمارسه في مجال تعزيز التنمية المستدامة وتأصيل قيمها وممارساتها في مرحلة ما قبل المدرسة، وهي المرحلة التي يمكن لها أن تتجاوب مع متطلبات التنمية المستدامة وموجبات ممارستها في أرض الواقع. في هذا البحث سنتناول دور التعليم في مرحلة الطفولة المبكرة في تأصيل الوعي الإنساني بالبيئة وأهمية المحافظة عليها، وفي تحقيق الجوانب الإنسانية للتربية على التنمية المستدامة لدى الأطفال، وسنسلط الضوء على الكيفية التي يمكن فيها للتعليم في مرحلة الطفولة المبكرة أن يمارس دورا كبيرا وحيويا في مجال التربية من أجل التنمية المستدامة.

الكلمات المفتاحية – **التنمية – الطفولة – التنمية المستدامة – الطفولة المبكرة** -

مقدمة:

تواجه المجتمعات الإنسانية اليوم تحديات طبيعية واجتماعية بالغة التأثير في مختلف مجالات الوجود الإنساني، ولاسيما في مجالات التنمية الاجتماعية والاقتصادية. فموارد الأرض المحدودة تستنزف بطريقة تدميرية وبوتائر متسارعة جدا، والاحتباس الحراري يدمر التوازن البيئي ويهدد التنوع الحيوي. ويأتي ارتفاع مستويات سطح البحر نتيجة الاحترار المناخي ليهدد ملايين البشر في مختلف أرجاء المعمورة، ولا سيما في البلدان الفقيرة التي تعاني من ضعف في وتائر نموها. فالهجرة عبر القارات، وارتفاع مستويات الفقر، وندرة الغذاء، وتضاعف الأمراض، وتراجع الأمن الإنساني، تشكل جميعها نسقا من التحديات والمخاطر التي تواجه المجتمعات الإنسانية في مختلف أصقاع الأرض وتهدد الحياة الإنسانية.

منذ اللحظة التي نشرت فيها منظمة التعاون والتنمية (OECD) تقرير برونتلاند (Brundtland report)(1) في نهاية الثمانينيات من القرن الماضي، الذي طرح قضية التنمية المستدامة باعتبارها قضية عالمية بالغة الأهمية والخطورة، بدأ العالم، سياسيا وعلميا، يوجه أنظاره إلى التربية بوصفها المنطلق الحيوي في مواجهة تحديات الوجود والمصير. ومنذ ذلك القوت بدأت الجهود السياسية والتربوية تبذل على نحو مكثف لإدراج المواد والقضايا والمسائل الأساسية المتصلة بالتنمية في المناهج التربوية كما في حال الممارسة التربوية، كالقضايا التي تتعلق بتلوث البيئة، وتغير المناخ، والانحباس الحراري، وحماية الموارد الطبيعية، وكل تلك الأمور أضحت قضايا أساسية في مجال التربية والتعليم. وفي هذا السياق يلاحظ أن هذه القضية لم تعط ما يجب أن تحظى به في مناهج التربية والتعليم في مرحلة الطفولة المبكرة وفي مجال تعليم الأطفال في مرحلة ما قبل المدرسية.

وفي التسعينيات من القرن الماضي شهد المجتمع الإنساني عددا هائلا من المشكلات العالمية الخطيرة التي اقتضت الضرورة العمل على وضع سياسات واستراتيجيات عالمية لمواجهتها والتصدي لمخاطرها. وقد أدت الأمم المتحدة (United Nations Organization) ومنظماتها الفرعية دورا مهما في دعم وتعزيز نشاطات العديد من المنظمات الاجتماعات العالمية المعنية بهذا الشأن، ورعاية الكثير من المؤتمرات التي كرست لتناول قضايا التنمية العالمية وتحدياتها. ويمكن الإشارة في هذا السياق إلى تضافر جهود هيئة الأمم المتحدة بهذا الصدد مع مؤسسات ومنظمات عالمية، ولا سيما المنظمات غير الحكومية عبر شبكاتها الواسعة التي تشكل

إطارا دوليا، وكان لهذه المؤسسات الدولية بجمعياتها ومنتدياتها وهيئاتها ومؤتمراتها وندواتها دور فاعل في إيجاد المسارات المتميزة لبناء استراتيجيات للعمل السياسي والاقتصادي والثقافي وتنفيذها في مواجهة التهديدات العالمية لمصير الكوكب والكائنات الحية التي تحيا عليه.

وقد عرّفت التنمية المستدامة لأول مرة في عام 1987 من قبل لجنة برونتلاند (the Bruntland World Commission)، وهي اللجنة العالمية المعنية بوضع استراتيجية أممية للتنمية[2]. وجاء في تعريف هذه اللجنة للتنمية المستدامة بأنها: "... تلبية احتياجات الأجيال الحاضرة دون المساس بقدرة الأجيال القادمة على تلبية احتياجاتها". (3) وأصبح هذا التعريف أكثر شيوعا وأهمية بين مختلف التعريفات التي وضعت لتعريف التنمية المستدامة، ويعد هذا التعريف حاليا ركيزة أساسية في كل فهم لاحق للتربية المستدامة. ويتضمن هذا التعريف مفهومين رئيسيين:

أولاهما - مفهوم "الحاجة"، ولا سيما الاحتياجات الأساسية لفقراء العالم، التي ينبغي إيلاؤها الأولوية القصوى.

وثانيهما - فكرة القيود المفروضة من قبل الدول والحكومات على احترام البيئة وتأهيلها لتلبية الاحتياجات الحالية والمستقبلية لأفراد المجتمع.

وهذا التعريف الذي قدمته برونتلاند حول التنمية المستدامة، يؤكد بوضوح على البعدين الإنساني والعالمي لمسألة التنمية المستدامة. وهنا يجب علينا أن ننطلق من التصور الذي يرى في التنمية المستدامة عمقا يتجاوز حدود الدلالات التي أعطيت لها، فالاستدامة كما نراها عملية دينامية أكثر منها سمة ثابتة للمجتمع، كما أننا نراها أدوات ووسائل للعمل بدلا من النظر إليها على صورة غاية نسعى إليها في النهاية، وهي فوق ذلك كله تشكل تحديا إنسانيا مستمرا في مجال التغيير الثقافي والاجتماعي المستمر.

وقد وجدت فكرة التنمية المستدامة هذه تعزيزا لها في أعمال قمة الأرض في ريو دي جانيرو (مؤتمر الأمم المتحدة المعني بالبيئة والتنمية، 1992) حيث قدم هذا المؤتمر مفهوما جديدا عميق الصلة بالتنمية المستدامة وهو "الاستهلاك المستدام"، وينص هذا المفهوم على إلزام الشعوب في البلدان الغنية بالعمل على تغيير أنماط استهلاكها وتقنين الهدر الاستهلاكي والصناعي، بما من شأنه تحقيق التنمية المستدامة والمحافظة على ديمومة الموارد الطبيعية.

ويبدو أن تعريف برونتلاند لم يسلم من الانتقادات الشديدة ولا سيما تلك التي أوردها أمارتين صن Amartyn Sen في تناوله المهم لهذا المفهوم، ويفيد صن أن تعريف برونتلاند لمفهوم التنمية المستدامة تعريف ريادي لكنه يعاني من بعض أوجه الضعف ولاسيما في ارتكازه على مفهوم تلبية الاحتياجات "Need"([4]) وهو في هذا السياق يرى بأنه يجب علينا أن ننظر إلى الأفراد بوصفهم " كائنات مبدعة تفكر وتتصرف وتنتج، وليس بوصفهم كائنات تحتاج إلى تلبية احتياجاتها" ([5]).

وهذا يعني وفق سين أنه يجب النظر إلى الناس والتعامل معهم بوصفهم أناسا قادرين على "التفكير، والتقييم، والحل، والإلهام، والفعل، والقدرة على تشكيل العالم ([6]).

ومن هذا المنطلق أعاد صن تعريف التنمية المستدامة على أنها "التنمية التي تعزز قدرات الناس الحاليين دون المساس بقدرات الأجيال المقبلة", المنظور الذي ينطلق منه صن يعزز فكرة "القدرة الإنسانية" بديلا من فكرة الحاجة، كما يعزز فكرة الدمج في مفهوم التنمية المستدامة ويوائم بقوة بين فكرتي الاستدامة والحرية، فالبشر وفقا لهذا المنظور ليسوا مجرد مخلوقات لهم احتياجات تسد وتلبى بل أشخاص يتمتعون بالحريات والقدرات قادرون على الفعل والإنتاج في المقام الأول" ([7]).

وقد لقي هذا التوجه صداه مع موقف تشوماخر Schumacher الذي يقول:" إن التنمية لا تبدأ مع السلع والأشياء بل مع الناس فيما يتعلق بتعليمهم، وقدرتهم على التنظيم والانضباط. وبدون هذه العوامل الثلاثة ستبقى الموارد جميعها مجرد إمكانية مفترضة " ([8]).

ومنذ عقد مؤتمر القمة العالمي([9]) للتنمية المستدامة في جوهانسبرغ عام 2002، أصبح مسلما به وعلى نطاق واسع أن للتعليم دورا رئيسيا يؤديه في تحقيق ثقافة الاستدامة وتكريس منظورها الذي يربط الرفاهية الاقتصادية بالتنوع الثقافي والتنوع البيئي([10]).

ونشهد اليوم اتفاقا عاما بأنه يجب على التعليم من أجل التنمية المستدامة أن يكون جزءا لا يتجزأ من التعليم الجيد للجميع، على النحو الذي تم تحديده في ضوء مؤتمر داكار لعام 2000([11]). ويلاحظ هنا أن التركيز على مفهوم الاستهلاك المستدام يجب أن يكون المحور الأساسي للتعليم في السنوات الأولى من أجل تعزيز التنمية المستدامة. ويمكن لنا في هذا السياق النظر إلى الإجراءات المستدامة على أنها إجراءات تلبي احتياجات الأجيال الحاضرة دون المساس بقدرة الأجيال القادمة على تلبية احتياجاتها المستقبلية.

ويتضح من ذلك أنه يمكن للتعليم كما التربية أن يمارسا دورا مهما في مواجهة التحديات الحيوية الكبرى. ومن منطلق أهمية الدور التربوي تراكمت الدراسات والبحوث وتدفقت أدبيات هذا الموضوع وترامت الوثائق المتخصصة التي تتمحور حول دور التعليم في عملية التنمية والتنمية المستدامة، وترسيخ مفاهيمها، وتزويد المواطنين بالقدرة على العمل لمواجهة التحديات المتعلقة بالتحديات الإنسانية، والعمل على إحداث التغيير الإيجابي المنشود في بنيتها. ومع أهمية هذا التراكم الهائل بدور التربية عموما فإن الاهتمام بدور التعليم في مرحلة الطفولة المبكرة يسير بوتائر ضعيفة ومحدودة جدا.

التعليم من أجل التنمية المستدامة:

ركزت توصيات قمة للأمم المتحدة التي عقدت في ريو دي جانيرو عام 1992 على ثلاثة أقانيم للتنمية: التنمية الاجتماعية، والتنمية الاقتصادية، وحماية البيئة. وهذه الركائز الثلاث مترابطة ومتعاضدة لا يمكن الفصل بينها في مجال التنمية المستدامة. ولذلك فإن التحدي الذي يواجه المربين في مرحلة الطفولة المبكرة يتمحور حول تطوير النظم التعليمية والمناهج والممارسات التربوية التي تعزز الإجراءات المستدامة فيما يتعلق بكل من هذه الركائز الثلاث.

وتوفر "الركائز" الثلاث للتعليم من أجل التنمية المستدامة ولأجلها رؤية للتعليم قوامها تحقيق التوازن بين الرفاهية الاقتصادية والبشرية وبين الثقافة بمعاييرها الإنسانية القائمة على احترام البيئة. ولذلك فمن المهم أن ندرك أن التنمية المستدامة تعتمد هذه الركائز الثلاث معا، ومن ثم فإن أي ممارسة أو سياسة لا تأخذ هذه الركائز معا أو أي منها بالحسبان فإنها بالضرورة آيلة إلى الفشل. وهذا يعني بالضرورة أن على المربين التركيز في وقت مبكر على تعليم الأطفال القدرة على الرؤية النقدية لوضعية المنتجات الصناعية والغذائية ومآلاتها تقنيا واقتصاديا وثقافيا. وهذا يشير إلى أهمية كبيرة في التحول من النهج التقليدي الذي لا يحفل بالطابع النقدي لهذه المنتوجات الصناعية.

ومن الناحية العملية، فإن التعليم من أجل التنمية المستدامة ينطوي على إمكانية دمج عدد من الأنماط التربوية في مجال تطوير المناهج الدراسية ضمن توجهات التربية على التنمية المستدامة، كالتربية للمستقبل؛ والتربية على المواطنة؛ والتربية على التسامح؛ والتربية على السلام؛ والتربية على التعدد الثقافي ؛ والتربية في مجال التثقيف الصحي؛ والتربية البيئية؛ والثقافة الإعلامية. وتشكل هذه التوجهات التربوية منصة فعالة

لتطوير المناهج الدراسية الحديثة ولاسيما تلك المعنية بتطوير الوعي الاقتصادي التنموي للأطفال في مجال التربية المستدامة.

التنمية المستدامة (ESD)[12] في مرحلة الطفولة المبكرة :

تؤكد اتفاقية الأمم المتحدة لحقوق الطفل (1989) (The UN Convention on the Rights of the Child) (13) أن لجميع الأطفال الحق في التعليم، وتضع خطة العمل " من أجل التنمية المستدامة " التي صدرت عن '"قمة الأرض"' في ريو Rio (1992) تعزيز التعليم الابتدائي الأساسية في قمة أولياتها. لكن هذا الاهتمام لم يشمل مرحلة الطفولة المبكرة حيث يكون التفاعل الأعمق بين الأطفال ووسطهم البيئي. إذ غالبا ما يواجه الأطفال في مرحلة الطفولة المبكرة أكبر التحديات البيئية، وفي هذه المرحلة يكون الوقت مناسبا لبناء الاتجاهات الثقافية الإيجابية وغرس القيم التنموية البيئية في عقل الطفل وتكوينه النفسي. ويمكن القول في هذا السياق - استنادا إلى البحوث والتجارب- أن الأطفال الصغار جداً قادرون على التفكير الجيد فيما يتعلق بالقضايا الاجتماعية والبيئية، وبناء على ذلك فإن التعليم والتربية على التنمية المستدامة يكون أكثر فعالية كلما كان هذا التعليم في وقت سابق وكلما كان الأطفال أصغر سنا.

وخير مثال على هذه الرؤية تجربة الطفل الإنكليزي تشارلي سيمبسون (Charlie Simpson)، ففي عام 2010 استطاع ذلك الطفل البالغ سبع سنوات حينذاك أن يستقطب انتباه الجمهور في غرب لندن بما أبداه من بسالة إنسانية في التضامن مع ضحايا زلزال هايتي المدمر، فبعد مشاهدته للأخبار على شاشة التلفزيون ركب تشارلي دراجته لمسافة خمسة أميال (8 كم) متوجها إلى حديقة قرب منزله في لندن لجمع التبرعات والأموال، وذلك من أجل شراء الطعام والماء والخيام لضحايا الزلزال في هايتي كاستجابة لنداء منظمة الأمم المتحدة للطفولة (يونيسف). وكان تشارلي يتوقع في ذلك الحين أن يجمع أقل من 500 جنيه استرليني، ولكن اهتمام وسائل الإعلام بتجربته اللافتة للنظر ساعده على جمع أكثر من 000،210 جنيه إسترليني لصالح ضحايا الزلزال. وتقدم قصة تشارلي مثالا على ما يمكن للأطفال أن يقوموا به في المستويين الفردي والمجتمعي من خلال التركيز على التعليم من أجل التنمية المستدامة في وقت مبكر([14]).

وعلى هذا الأساس، أولت الجمعية العامة للأمم المتحدة في عام 2009 اهتماما خاصا لحقوق الأطفال في أن يستمع إليهم، مؤكدة أن المبدأ العام للمشاركة من قبل الأطفال يشكل شرطا أساسيا وحيويا لتنفيذ

جميع الحقوق الأخرى المدرجة في اتفاقية حقوق الطفل ([15]). وضمن هذا المسار دعت الجمعية العامة الدول إلى ضمان حقوق الأطفال في التعبير عن جميع القضايا التي تمسهم، دون تمييز على أي أساس، وذلك من خلال مواصلة تنفيذ اللوائح والترتيبات التي تنص على ذلك ولا سيما مشاركة الأطفال في جميع الظروف، سواء كان ذلك في داخل الأسرة والمدرسة أو في إطار الحياة الاجتماعية التي تحيط بهم.

ويمكن الإشارة في هذا المقام إلى المبادرة التي اضطلعت بها جامعة يوتيبورغ وجامعة تشالمرز للتكنولوجيا، بالمشاركة مع المركز المشترك للبيئة والاستدامة(Centre for Environment and Sustainability) في عام 2004، وذلك بالدعوة إلى مؤتمر دولي حول التعليم من أجل التنمية المستدامة الذي عقد لاحقا في غوتيبورغ Goteborg بعنوان التعلم لتغيير عالمنا Learning to change our world. وأسهمت حلقات العمل المكثفة في ذلك المؤتمر في التركيز على مفهوم التعليم للتنمية في مرحلة الطفولة المبكرة. وانطلقت توصيات المؤتمر من مسلمات الاعتقاد بأن الأطفال كائنات ذاتية فعالة ونشطة فيما يتعلق بحياتهم الخاصة، وأنهم يؤثرون ويتأثرون في الوسط الذي يعيشون فيه ولاسيما إذا كان ضمن وسطهم ما يتطلب ذلك ولاسيما الانخراط في أوساط بيئية واجتماعية. وقد اتخذت هذه التوصيات مسارا ابتعدت فيه عن الطابع التقليدي للتفكير في مرحلة الطفولة بوصفها مرحلة رومانسية تفيض ببراءة الأطفال وألعابهم ضمن سياق حياة آمنة ومأمونة غامرة بالسعادة تنأى عن الأحداث من حولهم. وقد أسفر المؤتمر عن عدة توصيات عن التعليم من أجل التنمية المستدامة. ومن أهم القضايا التي ركز عليها المؤتمر أهمية التعلم من أجل التنمية المستدامة في مرحلة الطفولة المبكرة كنقطة انطلاق للتعلم مدى الحياة، وذلك من أجل التنمية المستدامة؛ كما أكد المؤتمر على تكريس قيم المساواة بين الجنسين وحقوق الإنسان والقيم الديمقراطية في التعليم المبكر للطفل بوصفه تأصيلا إنسانيا، فالتعليم في هذه المرحلة من الطفولة يشكل نقطة انطلاق في اتجاهات العمل على تربية الطفل على مبادئ التنمية المستدامة.

وركز المؤتمر على أهمية تكامل المناهج المدرسية في مجال تعزيز مشاركة الطفولة في حماية البيئة والتعايش معها وتعزيز القيم والقناعات لدى الأطفال بأهمية التغيير في البيئة والمجتمع بما يعزز مسارات التعليم من أجل التنمية المستدامة. فالتعليم في مرحلة الطفولة المبكرة يوفر الأساس للتعلم مدى الحياة

وبناء القدرات النقدية، وتوفير الرعاية الأولية والثانوية للشباب، بما في ذلك تعزيز إمكانات الرعاة الأساسيين للتنمية المستدامة.

وقد شدد المشاركون على أهمية التعليم المبكر من أجل التنمية المستدامة في مناهج السنوات الأولى، حيث يتمركز هذا التعليم التنموي في مرحلة الطفولة المبكرة على منهجية دمج القيم التنموية الاجتماعية والاقتصادية والبيئية في مختلف أوجه حياة الطفل ونشاطاته، وهذا يشمل الأطفال الذين لم تتجاوز أعمارهم السنة الأولى من العمر، ويتعين اعتماد هذه النهج على نطاق أوسع في المناهج الدراسية الرسمية لنهج التعليم ونهج التعليم غير النظامي في مجال التربية على التنمية المستدامة.

ومن القضايا التي كرسها المؤتمر أهمية الممارسة العملية للمعلمين بوصفهم نماذج تربوية حية، فالأطفال يتماهون بمعلميهم ويتمثلون سلوكهم بالاقتداء، وهذا يعني أنه يجب على المعلمين العيش وفقا لمبدأ التوافق بين الفكر والممارسة لتقديم أفضل الممارسات التربوية التنموية. ويتمركز هذا التطبيق العملي في التفاعل الحي مع البيئة الذي يهدف إلى الحد من الهدر في الطاقة والمياه والمواد ومحاربة التلوث، كما يشمل ذلك الممارسة الحية للقيم الاجتماعية التنموية في مجال الممارسات الديمقراطية والإنسانية، وهذا يعني باختصار أن على المعلمين ممارسة ما يدرسونه من قيم ونظريات.

وأخيرا نبه المؤتمرون إلى أهمية التركيز على إطلاق البحوث والدراسات وتشجيعها في مجال التعليم المبكر على القيم التنموية، ونادوا بإجراء المزيد من البحوث في هذا الميدان، وذلك لأن التعليم في مرحلة الطفولة المبكرة يعاني من نقص شديد في هذا المجال.

أهمية الطفولة في مجال التربية على التنمية المستدامة:

يؤكد علماء النفس أن السنوات الخمس الأولى من حياة الفرد تعد الأساس الحيوي لتشكيل شخصية الفرد والبوتقة الوجودية التي يصقل فيها، ففي هذه المرحلة تتشكل شخصية الفرد وتتبلور معالم وجوده، وفي خضم التفاعل التربوي للفرد مع معطيات الوجود الإنساني في هذه المرحلة الأولى من الطفولة تتغلغل القيم والمعاني والدلالات في أعماق الفرد وتشكل منطلقا لسلوكه وفهمه للكون، وستشكل هذه المعطيات التربوية في المستقبل القريب أو البعيد مرجعيات أساسية لمختلف أشكال التفاعل بين الإنسان والبيئة الاجتماعية والطبيعية التي يعيش فيها على مدى الحياة. فعندما يواجه شخص ما أوضاعا صعبة ومعقدة، أو

عندما يتطلب الأمر اتخاذ قرارات مهمة، فإن القيم الضاربة جذورها في التكوين الداخلي للفرد المؤسسة للشخصية في مرحلة الطفولة الأولى ستؤدي دورا حاسما وتوجه خيارات الطفل وتحدد قراراته وسلوكاته وردود أفعاله.

لذلك، إذا كنا نرغب في تكوين اتجاهات إيجابية للأجيال القادمة نحو احترام الطبيعة ورعاية الكوكب والمحافظة عليه وحمايته، فمن الضرورة بمكان أن نؤسس كل المعطيات المنهجية والفكرية في مرحلة الطفولة المبكرة ونرسخها وفق اتجاهات إيجابية راسخة نحو قيم احترام الطبيعة والعناية بالبيئة والمحافظة عليهما، وهذا يتضمن ترسيخ أهمية الترابط الحيوي بين البشر والبيئة التي تحتضنهم. فكل ما نرسخه من قيم وممارسات واتجاهات في وعي الفرد في مرحلة الطفولة الأولى سيبقى فاعلا ومؤثرا في مسار حياة الفرد المستقبلية حتى النهاية.

فالأطفال حساسون جدا للطبيعة بما تنطوي عليه من مكونات: الحيوانات، والنباتات، والورود، والنار، والمياه، والأرض، والرياح، والحرائق... الخ. وهم يتأثرون بعمق عاطفيا ونفسيا وفكريا في كل ما يتعلق بالمكونات الحيوية للطبيعة. وتبين التجربة أن أغلب الناس من البالغين الذين يعيشون في المدن الكبيرة يتذكرون بسرور لحظات لا تنسى في مرحلة الطفولة ولا سيما تلك السنوات التي قضوها في الأرياف، مع النباتات والبذور والأشجار وأشكالها، والأنهار، والحدائق، والورود والأزهار، والخيول والماشية والطيور والحيوانات الأليفة. وغالبا ما تغالبهم تلك الذكريات الطفولية القديمة. ومن هنا، يجب اعتماد هذه التجارب الطفولية من أجل بناء استراتيجيات فعالة في التعليم، تأخذ في الاعتبار هذه الأحاسيس والمشاعر والقيم والتصرفات التي تضرب جذورها في وعي الأطفال من أجل بناء اتجاهات إيجابية خلاقة نحو البيئة. ومن هذا المنطلق أدرجت مقررات الطبيعة بوصفها نشاطا علميا مؤثرا في الوعي البيئي في مرحلة الطفولة المبكرة. في كثير من بلدان العالم. وفي هذا المسار، ومع الاهتمام العالمي بتدهور البيئة، بدأ هذا الموضوع يجتذب اهتماما سياسيا، ومن المرجح أن يكتسب أهمية كبيرة في التعليم في مرحلة الطفولة المبكرة، في عدد كبير من البلدان التي بدأت تضمّن الطبيعة والبيئة ضمن المناهج الدراسية للتعليم في مرحلة الطفولة المبكرة.

التنمية المستدامة في رياض الأطفال:

يستمد منهج التربية المستدامة في تعليم الأطفال جوهره التربوي من نظرية فروبل Fröbel، ويرتبط ارتباطا وثيقا برؤيته، إذ كانت نظريته التربوية تتمحور حول ربط الأنشطة المدرسية بالأنشطة التي يمارسها الطفل في حياته اليومية لتصبح إطارا مرجعيا لسلوكه ونشاطه على مدار الحياة، وهذا يشمل أغلب الأنشطة الحيوية والوجودية التي يؤديها الطفل في حياته اليومية، كالأعمال التي يقوم بها في المنزل، مثل الطبخ ونشر الخشب والزراعة، والممارسات التي يؤديها في تفاعله مع الناس في محيطه كما في طريقة نظرته إلى الحياة والوجود. فالأطفال الصغار يختلفون عن الكبار في تكوينهم الذهني والنفسي، لذا فإن الطريقة الأنجع لتعليمهم وتأهيلهم إنسانيا واجتماعيا في مرحلة ما قبل المدرسة تكون على أساس التعلم باللعب والعمل واللون والصورة والموسيقا، وكل ما يمكنه أن يكون محببا وجميلا وممتعا ومشوقا بالنسبة للطفل.

تعتبر رياض الأطفال المكان المثالي الذي يعيش فيه الأطفال الصغار والذي يمكنهم من التعلم والاستكشاف في عالم آمن وشفاف دون أجندات خفية، ففي رياض الأطفال يبدأ الأطفال بالتفاعل الاجتماعي الثقافي، فيتعرف بعضهم على بعض بطريقة بريئة حسية مباشرة بعيدا عن النمذجة المتحيزة التي نجدها في عالم الكبار، فرياض الأطفال هي أماكن تلتقي فيها أجيال مختلفة من بيئات متنوعة وخلفيات ثقافية متباينة، يتفاعل فيها الأطفال مع الآباء والأجداد مع الكبار والصغار، وهي بذلك تشكل بوتقة إنسانية ينشأ فيها الطفل على قيم المحبة والسلام والتوازن الخلاق مع مكونات البيئة التي يعيش فيها. وفي هذه الرياض لا توجد أسئلة مبهمة أو غير مفهومة لدى الأطفال، بل هناك دائما وقت لطرح الأسئلة والإجابة عنها بمصداقية وبراءة وصراحة. وفي ذلك العالم الصغير المفعم بالمعاني الإنسانية يتشكل الطفل روحيا وأخلاقيا، وهذا هو المكان المناسب للتربية على التنمية المستدامة روحيا ونفسا وأخلاقيا إزاء البيئة والإنسان والحياة([16]).

لقد بينت البحوث المتعلقة بأطفال مرحلة ما قبل المدرسة أن الأطفال يتعلمون جيدا وبطريقة مذهلة عن طريق اللعب، وإذا كان تعليم الأطفال ينبغي أن يكون عن طريق اللعب، فإن إدماج اللعب والتعلم في مجمله سيكون قادرا على تمكين الأطفال من التفاعل مع قضايا البيئة والطبيعة وحقوق الإنسان.

في هذا المكان المثالي (روضة الأطفال) يكون التحدي التربوي تنمويا، فهناك الكثير من المعلومات الموجودة في العالم غير معروفه عند الأطفال، وعلى المعلمين بذل الجهد والعمل لجعل المجهول مفهوماً

ومعلوما عند الأطفال، وذلك بخلق فرص متجددة وحية لاكتشاف المجهول عن طريق الممارسة، وهذا يتطلب من المعلمين أن يكونوا على دراية ومعرفة بما هو مطلوب منهم وما ينبغي أن يعلموه للأطفال، ومن ناحية أخرى هناك تحديات أكثر صعوبة قد تواجه المعلمين، وقد تكون إحدى طرق التعامل مع هذه الصعوبات هي محاولة تحديد ما يمكن أن يستفيد منه جميع الأطفال في المستقبل([17]).

وهنا وضمن هذا التوجه التربوي يتعلم الطفل قيم الشجاعة والنزاهة والتفكير النقدي والمسؤولية، وهي القيم التي تشكل محورا أساسيا في التربية المستدامة الضرورية لجميع الأطفال حتى يكونوا مستعدين لمستقبل غامض غير معروف، والطفل هنا يتعلم ويتأصل على مقاومة الظلم والمطالبة بحقوق الإنسان، وهو في المستقبل عندما تنتهك حقوق الإنسان سيكون قادرا على المواجهة، وعندما يرى الظلم سيناهضه، وعندما يرى الاعتداء على البيئة سيقاومه، ومن هنا في الرياض تكمن القدرة على بناء مواطنين فعالين في مجتمع تنموي مستدام.

وفي هذا المدار يجب على المعلمين المتخصصين في التعليم من أجل التنمية المستدامة أن يكونوا قادرين على أداء المهمة التربوية بما يمتلكونه من أفكار وتصورات ونظريات حول التنمية المستدامة، وضمن رسالتهم التربوية يجب أن يكونوا قادرين على مواجهة وتحدي تجارب الأطفال وأفكارهم. وفي الوقت نفسه يجب الأخذ بعين الاعتبار أن النهج التربوي هو الأهم. ومن المرجح أن يكون هذا النهج منفتحاً على الاختلافات ويجعل تباين أفكار الأطفال وتجاربهم مهمة مركزية لتعزيز وعي الأطفال بصنع المعنى (18).

فالإحساس بالمسؤولية والمشاركة الاجتماعية يشكلان جزءاً لا يتجزأ من مفهوم التنمية المستدامة، وهنا تكمن مهمة المعلمين في رياض الأطفال أو التعليم ما قبل المدرسي، إذ يجب عليهم ترسيخ هذه المعاني وتجسيدها في أنماط السلوك الطفولية قبل المدرسة؛ لأن التنمية الاجتماعية كانت دائماً ولا تزال عاملاً رئيسياً في حياة الأطفال الصغار، ويمكن القول إن ترسيخ مفهوم المسؤولية والمشاركة ليس أمرا صعبا ومعقدا على الإطلاق، إذ يمكن للمربين في مرحلة ما قبل المدرسة ترسيخ هذه المعاني وتعظيم هذه الدلالات في عقول الأطفال عن طريق تفاعل الأطفال مع بعضهم باللعب والأنشطة المدرسية الترفيهية المشوقة، ومن المؤكد هنا أن اللعب يشكل الجانب الأكثر أهمية في عملية التشكيل الذهني والاجتماعي للطفل، لذا نجد تعاظما في

مشاركة المعلمين للأطفال في ألعابهم؛ لأنهم يعتقدون - وهذا صحيح علميا- أن اللعب أفضل وسيلة لتعليم الأطفال وترسيخ المعرفة التي يريدون ايصالها إليهم.

خلال ورشة العمل الدولية التي عقدت في غوتيبورغ عام 2007 حول موضوع "دور التعليم في مرحلة الطفولة المبكرة من أجل مجتمع مستدام"، وضعت توصيات بشأن التعليم من أجل التنمية المستدامة عند أطفال مرحلة ما قبل المدرسة[19]. وقد أكدت هذه التوصيات أهمية العلاقات الوثيقة بين المعلمين والأطفال، وهذه الأهمية تشمل علاقة الاطفال بعضهم ببعض، لأن هذه العلاقات تشكل قلب التعليم قبل المدرسي وتجسد روحه الحقيقية. ومثل هذه العلاقات المتوازنة بين الأطفال ومعلميهم وبين الأطفال أنفسهم ترسخ لدى الطفل فكرة الديمقراطية وتعلمه العيش مع الآخرين وفق معاييرها، ويعد هذا الجانب من أكثر الجوانب المضيئة في مرحلة ما قبل المدرسة، حيث يعيش جميع المعلمين والمتعلمين ضمن أجواء ديمقراطية وآمنة خلاقة.

في العديد من رياض الأطفال النموذجية يتم فرز الأشياء وتصنيفها لإعادة تدويرها في وقت لاحق، وذلك لترسيخ فكرة دوامية الأشياء وأهميتها واحترام مكونات البيئة، ومن ثم ترسيخ فكرة الاقتصاد في الاستهلاك وإضفاء المعنى على الأشياء وتكريس فكرة رفض الإسراف والتبذير والهدر في الطبيعة والبيئة، فالأشياء لا يمكن أن تفقد قيمتها عبر الاستهلاك، فهناك دائما إمكانية تحويلها إلى أشياء أخرى مفيدة للمجتمع والإنسان، وهذه العملية التي ترسخ فكرة دوامية الأشياء والقدرة على تدويرها تشكل أحد العناصر الأساسية في التربية المستدامة.

فلسفة الاستدامة – التدوير:

يمكننا أن نميز في مناهج التربية المتخصصة في مجال التعليم من أجل التنمية في مرحلة الطفولة المبكرة محورين أساسيين للتربية البيئية:

(أ) المعرفة والخبرة الملموسة المباشرة للطبيعة؛

(ب) التحويل وإعادة التدوير.

يتضمن المحور الأول الفعاليات التي تتصل بالوعي البيئي والاستكشاف والمغامرة والتجارب مع العناصر الطبيعية (البذور والنباتات والمياه والتربة والرمال والرياح والطيور الصغيرة والحيوانات الصغيرة وغيرها).

والثانية – تشكل عملية تدوير واستخدام المواد المهملة في مجال الأنشطة التربوية والفنية جانبا حيويا مهما في مناهج التعليم في مرحلة الطفولة المبكرة. فالتربية والتعليم في مرحلة الطفولة المبكرة يتفاعلان جوهريا - كما أسلفنا- مع عناصر الطبيعة وبقاياها، حيث يتم تدويرها وتحويلها إلى أشياء مفيدة مثل اللعب، والأدوات الموسيقية، والمواد الفنية.

فالأشياء المهملة، مثل الصناديق، والأكواب البلاستيكية والزجاجات الفارغة، والورق المهمل والأنسجة، والملابس المستعملة، والقبعات، والأحذية، والنظارات، والمرايا، والأنابيب، والخردة الخشبية، يمكن تدويرها وإعادة استخدامها وتحويلها إلى أشكال وأشياء مفيدة ومثيرة للاهتمام على نحو تربوي. ومن ثم فإن استكشاف المصنوعات القديمة مثل الخيام والمراصد والقوارب والسفن والغواصات والصواريخ والشاحنات والقطارات والصناعات والمصانع، يعطي الأطفال تجربة استكشاف العالم والإحاطة بأسراره. وهذه العملية تغذي في الطفل رؤية فلسفية عميقة المدى تدل على أن الأشياء في الطبيعة لا تموت، وأنها قادرة ضمن سياق الفعل الإنساني أن تعود إلى الحياة من جديد بيد الأطفال وضمن توهجات خيالهم. نعم الدرس الذي نتعلمه من هذا التدوير الإبداعي أن الكائنات الطبيعية لا تموت، وهي إن اندثرت لا تفنى معانيها فهي تنتمي إلى العالم الذي نعيش فيه، ويمكن أن تتحول إلى كائنات أخرى مهمة في الحياة ومفيدة، وهذا يعني أن علاقة الإنسان بالطبيعة تسمو في هذه العملية بمعانيها الإبداعية.

ومع ذلك يجب علينا أن نأخذ بعين الاعتبار أنه ليست كل الأشياء المهملة مناسبة لإعادة التدوير. ففي مراكز تنمية الطفولة المبكرة، يمكننا استخدام مجموعة واسعة من المواد من مجموعات أشمل وأوسع من المواد الأخرى التي لا تصلح للتدوير، وفي كل الأحوال فإن فكرة التدوير والتجديد في معطيات البيئة فكرة أساسية في تعميق صلة الأطفال بالطبيعة إبداعيا، وتنميتهم على تقدير الأشياء الطبيعية والاهتمام بصيرورتها.

التأسيس النقدي لعقلية الطفل:

تهدف المناهج التربوية الإنمائية في المراحل الأساسية المبكرة للتعليم عبر عمليتي التحويل والتدوير (Transformation) (أي إعادة تدوير المخلفات الطبيعية والصناعية وإعطائها معنى جديدا) إلى تحقيق

أهداف فلسفية ونفسية وتربوية في آن واحد. لقد دفع التصنيع وظهور المجتمع الاستهلاكي إلى توليد حاجات صنعية زائفة ومتكلفة، وهذا بدوره أدى إلى تراكم هائل في حجم النفايات الصناعية والطبيعية.

يعتقد الشخص العادي، في جميع أنحاء العالم، أنه لا يمكننا أن نعيش دون البضائع التي تنتجها التكنولوجيا الصناعية المتقدمة. فوجود المال والانخفاض النسبي في أسعار المنتجات الصناعية يولد الرغبة في شراء المنتجات الصناعية واستخدامها المتزايد على نحو متسارع جدا. فعملية استبدال البضائع والمنتوجات تسير بوتائر متسارعة. ونحن نعيش في حلقة مفرغة مرعبة تجمع بين الإنتاج والاستهلاك. فاستراتيجيات التسويق تغري الناس بشراء أحدث المنتوجات المتطورة، وعلى نحو متسارع يفقد المنتوجات السابقة أو المستخدمة حاليا (التي لا تزال مفيدة) قيمتها وأهميتها، حيث تدفع إلى مكاسر الإهمال والعدمية وتتحول إلى مجرد نفايات صناعية بائدة غير مرغوبة.

وتأسيسا على هذه المعطيات يتم تعزيز الروح الاستهلاكية وتمكين سلوك الاستبدال في عقولنا وعاداتنا واتجاهاتنا، وتنمية نزعتنا إلى مواكبة الجدة والجديد واحتقار القديم وازدرائه. إن النزعة الاستهلاكية ليست سوى طريقة واحدة للتعبير عن الروح الحقيقية لعالم الإنتاج الصناعي الرأسمالي الذي يتمثل في دورته الاستهلاكية المتسارعة أبدا، والتي بموجبها يحل الجديد محل القديم وسرعان ما يتحول الجديد التكنولوجي نفسه إلى قديم يترامى في ركام النفايات الصناعية المدمرة للبيئة والإنسان. ومن ثم فإن هذه الوضعيات والمواقف تجعل الناس يتخلصون من سياراتهم والأجهزة المنزلية والملابس والأحذية والأمتعة الشخصية والهواتف المحمولة وأجهزة الكمبيوتر والتلفزيون والصوت والكاميرات، ويسعون إلى اقتناء الجديد بصورة مستمرة ومتجددة.

وقد بدأ المجتمع الإنساني اليوم تحت تأثير هذا التراكم في النفايات يشعر بالقلق الكبير، ولا سيما بشأن النفايات الإلكترونية التي تحمل مخاطر الإشعاعات الضارة بالإنسان والبيئة، كالبطاريات، والرقائق المشعة وغيرها من المواد الخطرة على الصحة والبيئة.

ويكمن الخطر الأكبر لهذه القيم الاستهلاكية في مجال تفكك العلاقات الإنسانية: لقد أصبح الحب عاطفة سريعة الزوال، وغدت الصداقة شعورا سطحيا، وتحولت العلاقات الإنسانية إلى علاقات مادية تتسم بالتسارع والزوال. وأدى ذلك إلى ظهور قيم سلبية مخيفة مثل خيانة الآخرين والغدر بهم بسهولة ولأتفه

الأسباب، أو التخلي عن هذه العلاقات الإنسانية واستبدالها بسرعة كبيرة، حتى أصبح الناس يشعرون بالاغتراب والإهمال وكأنهم سلع قديمة يجب تجديدها ورميها في سلة المهملات. وقد غدا الأمر مخيفا إلى درجة أن قليلا من سوء الفهم بين الأصدقاء والأحبة يكفي لقطع الروابط حتى بين الآباء والأبناء، أو بين الأمهات والبنات، أو بين الأزواج والزوجات. وتوضح الوقائع أن الأبناء يتخلون بسرعة كبيرة عن ذويهم المسنين؛ إذ سرعان ما يجد هؤلاء المسنون أنفسهم في دائرة الإهمال والنسيان من قبل أقرب الناس إلى قلوبهم وحياتهم.

ومن هنا تأتي الأهمية الكبيرة جدا لمنظور إعادة الاعتبار إلى القديم وتقدير قيم المستهلك والمهمل عبر رؤية جديدة وقيم متجددة، فتقييم بعض الأشياء التي تم التخلص منها يضفي كثيرا من المعاني ويوقظ مبدأ الشعور بالديمومة والاستمرارية والانتماء في حياة الناس ووجودهم. فاحترام الطبيعة وتقدير البشر يمكن أن يؤصل من جديد لاستعادة العلاقات الإنسانية بين الناس والناس كما بين الناس والأشياء، وذلك يؤدي بدوره إلى تعزيز قيم المحافظة على القديم واحترام ما كانت عليه الأشياء، وتقدير كينونة الأشخاص كما كانوا وكما يجب أن يكونوا عليه من احترام وتقدير.

وعلى هذا النحو يمكن إضفاء المعاني الجديدة لأشياء وأمور قديمة، وذلك عندما يتم توظيفها من جديد لغايات جديدة. على سبيل المثال، إن تحويل زجاجة من البلاستيك إلى لعبة للأطفال، أو تحويل أي منتوج قديم مستهلك إلى صورة فنية جديدة، أمر يؤدي إلى الحصول على قيمة تتجاوز حدود المنفعة المادية الخاصة بالأشياء، فالأمر هنا يكمن في إضفاء المعنى والدلالة على الأشياء المدورة والفانية. إن إعادة التدوير (بصرف النظر عن قيمها الاقتصادية والبيئية) تحمل في ذاتها قيما نفسية ودلالات وفلسفية وتربوية. وتتمثل هذه القيم في إضفاء المعنى على القديم والتركيز على دلالتي أهمية الأشياء وديمومتها ولاسيما في الأمور التي تتعلق بالناس. وهذا السلوك التربوي يؤصل لعملية استكشاف القيمة الإنسانية للإنسان وكرامته الذاتية، فالإنسان قيمة تتجاوز حدود النظرة المحدودة إليه، إنه توق إلى المستقبل والحلم والسعادة والحب والجمال.

الأطفال في مواجهة التحديات الحيوية:

هل يمكن فعليا لقضايا البيئة والمحيط الحيوي للإنسان أن تثير اهتمام الطفل؟ مثل: الاحتباس الحراري، وثقب طبقة الأوزون، وتراجع احتياطيات المياه، والتصحر، وتلوث الهواء، والأمراض الناجمة عن تدهور البيئة، والقمامة السمية والذرية. فمن الواضح أن تناول هذه القضايا البيئية في الصحف، وعلى شاشات التلفزيون، وفي برامج الدردشة اليومية، يثير اهتمام الأطفال ويحرض فيهم الفضول المعرفي. ولأن هذه المشكلات ترتبط حيويا بحياة الأطفال، فإنهم يواجهونها بوصفها تحديات وجودية تحظى باهتمامهم وتفكيرهم وقلقهم.

وفي هذا يقول الفيلسوف الاسباني أورتيغا ذ غاسيت (Ortega y Gasset) " لا شيء يحيط بي هو غريب بالنسبة لي"، "أنا نفسي عين ظروفي"، وهذا يعني أن الأحلام، والرغبات، وهذا الأمر بالتأكيد ينسحب على الأطفال. فالمحيط الحيوي الذي نعيش فيه وكل وما ينطوي عليه من أشياء وقضايا ومشكلات ثقافية ونفسية ومادية يشكل شخصية المرء وكينونته الذاتية، وبما أن المرء جزء من الطبيعة، فإن كل مشكلة تؤثر على البيئة - الهواء والنباتات والغابات والأنهار والحيوانات وظروف الحياة على الأرض - تؤثر في وجوده وكيانه.

"فالإنسانية –كما جاء في ميثاق الأرض - هي جزء من عالم متطور واسع، إنها الوطن الذي نعيش فيه كجماعة بشرية حية.. وعلينا أن نقرر العيش بإحساس عالمي من المسؤولية، كما علينا التعرف على أنفسنا كجماعة كونية تمثل مجتمع الأرض برمته وكذلك ضمن سياق مجتمعاتنا المحلية ". وهكذا فإن المبدأ الأول لهذا الميثاق هو "الاعتراف بأن جميع الكائنات مترابطة ترابطا عميقا وجوهريا، وأن كل مظهر وشكل من أشكال الحياة يحظى بقيمته الكونية بغض النظر عن قيمته للبشر" (20).

التجارب الحيوية للأطفال:

ما الصيغ والطرائق الفضلى التي يمكن أن تعتمد لإدراج هذه القضايا البيئية الحيوية والموضوعات في مناهج التربية والتعليم في مرحلة الطفولة المبكرة؟ وفي معرض الإجابة يمكن القول إن أفضل طريقة وأكثر أشكال التعلم فعالية في السنوات الأولى من العمر والمراحل الأولى من التعليم المبكر هي طريقة المشروع. ويمكن أن نورد هنا باختصار شديد موجزا لمشروع واحد وضعه مجموعة من الأطفال تتراوح أعمارهم بين 3 إلى 4 سنوات، بمساعدة من معلميهم، في أحد المراكز التعليمية بمرحلة الطفولة المبكرة.

ديدان الأرض (21):

وجد فيليب حشرة صغيرة تحت أوراق جافة من شجرة البرتقال عندما كان يلعب في الحديقة، فنادى زملاءه الذين كانوا في مكان قريب قائلا لهم بدهشة انظروا انظروا ماذا وجدت؟ سأله أحد رفاقه ما هذا يا فيليب؟ فأجابه فيليب قائلا: "إنها دودة الأرض". وعندما عاد الأطفال إلى الفصل بدؤوا يتحدثون عن الدودة التي شاهدوها تحت شجرة البرتقال، وشكل هذا الأمر الموضوع الرئيسي للحوار في الفصل الدراسي. واستطاع المعلم أن يوظف الحادثة توظيفا تنمويا بتشجعيه للأطفال على الحوار والتساؤل في محاولة منهم لفهم ما لاحظوه تحت الشجرة وبين أوراقها المتناثرة. وبدأ الأطفال يبدون تعليقاتهم وشروحاتهم المتنوعة. وعلقت ليزا على الموضوع بالقول: والدي يعمل على تربية دود الأرض. ثم سألها المعلم لماذا يقوم والدها بتربية دود الأرض؟ وجاء الجواب حالا من ليزا بالقول: "إنه يبيع سماد دودة الأرض". ويسأل المعلم "هل دود الأرض يجعل السماد أفضل؟ وهنا أخذ المعلم يركز على هذه المسألة محاولا أن يجعل الأطفال يفهمون سر السماد وعلاقته بدودة الأرض ([22]).

وبدأت الأسئلة والإجابات تتدفق بين التلاميذ، وبعد فترة من الوقت، استطاع التلاميذ بناء هذا الاستنتاج: "الديدان تشكل زغب الأرض وهي التي تساعد النباتات على التفتح والنمو ". وفي كل هذه اللحظات من الحوار كان اهتمام الأطفال بالقضية واضحا، وكانوا جميعا يريدون معرفة المزيد عن ديدان الأرض. بعض الأطفال قالوا إنهم لم يروا دودة الأرض سابقا، وهم لم يكونوا على علم قط بقدرة هذه الديدان الصغيرة على جعل الأرض أكثر يناعة وخصوبة لنمو الأشجار والنباتات ([23]).

وبعد ذلك اقترح المعلم على الأطفال القيام بمشروع يمكنهم أن يعرفوا منه كيفية تحرك الديدان في داخل التربة وكيفية صنعها للأنفاق الناعمة، كما يمكنهم من معرفة المواد التي تتغذى عليها الديدان وسبب كراهيتها لأشعة الشمس. وقد اقترح بعض الأطفال دعوة والد ليزا (مربي الديدان) للحديث عن عمله في هذا المجال. ثم اقترح بعضهم أن يقوموا ببناء " مشتل لدودة الأرض" في حديقة المدرسة ومن ثم الاستفادة من هذا المشتل لوضع السماد المنتج على النباتات المدرسية ([24]).

عندما جاء والد ليزا إلى المدرسة، أحضر " مشتل دودة الأرض" وهو مشتل مصنوع من الزجاج، حيث يمكن للأطفال مراقبة عمل ديدان الأرض. وأوضح في شرحه حوله كيفية تكاثر الديدان، وكيفية تأثيرها في

التربة وتخصيبها، كما شرح لهم سبب كون السماد جيدا للحدائق. ثم تحدث عن الكائنات الحية الدقيقة التي تعيش في التربة، وعن أهميتها للنباتات بشكل عام، وللخضراوات على وجه الخصوص. وفي نهاية المطاف، كان الأطفال فرحين جدا لما استوعبوه من معرفة حول ديدان الأرض ودورها في تخصيب التربة ونمو النباتات ([25]).

وفي المرحلة الثانية من المشروع اقترح الأطفال بناء مشتل لديدان الأرض. وقد وجدوا اقتراحات عملية عديدة جيدة لتحقيق هذا المشروع من خلال شبكة الإنترنت. واقترح الأطفال، بإدارة المعلم، إحضار عدة مواد ضرورية: زجاجة من البلاستيك، مقص لقطع جانب من الزجاجة، كيلوغرام من التربة، وبعض الرمل، وشريط لاصق، وكيس من البلاستيك الأسود، وقطعة من رقائق الألمنيوم لتغطية الزجاجة (ولحماية الديدان من الضوء وأشعة الشمس)، واقترحوا جمع بقايا الطعام، وقشور الفاكهة المتعفنة، والأهم من ذلك، كان عليهم إحضار عدد صغير من ديدان الأرض. وقد كتب المعلم على السبورة كل الأشياء التي اقترحها الأطفال وكل ما قالوه، ثم طلب منهم أن يرسموا الأشياء والمواد المطلوبة على أوراق بيضاء.

في المرحلة الأخيرة تمّ تقسيم المهام بين الأطفال لإحضار هذه المواد بإشراف المعلم، وبعد الحصول على المواد المتفق عليها، بدؤوا العمل وفق المخطط الذي وضعوه، حيث قام الأطفال بقص جانب واحد من الزجاجة البلاستيكية، ثم وضعوا طبقات التربة والرمل والأوراق الجافة وقشور الفاكهة. ثم وضعوا الديدان وغطوا كل شيء بأوراق الخس الجافة، وأخيرا غطوا الزجاجة بقطعة البلاستيك الأسود، وبعد عدة أيام قام الأطفال بإزالة البلاستيك لمراقبة ما يحدث. وبعد أربعة أسابيع أخرى كان الفرق واضحا تماما: أصبحت المواد تربة مختلطة، وقد تغير تكوين المواد داخل الزجاج كما لونها.

وبينما كانت الديدان - التي أطلق عليها أحد الأطفال "عمال التربة" - تقوم بدورها في إنتاج التربة السمادية، كان الأطفال يتابعون على الإنترنت كل ما يتعلق بالدود وطبيعته ودوره الحيوي، واستطاعوا عبر ذلك أن يتعلموا أشياء كثيرة غريبة، لقد عرفوا بوجود عدة أحجام من ديدان الأرض، بعضها يبلغ طوله 5.0 سم ويصل طول بعضها الآخر إلى 3 أمتار. وقرأ الأطفال أن هذه الديدان تم تبجيلها كحيوانات مقدسة في مصر لأنها تسمد تربة ضفاف نهر النيل، وأن بعض الناس يأكلون هذه الديدان، لأنها مغذية جدا وتمتلك كمية كبيرة من البروتينات. وبعد بضعة أيام، عندما أصبحت التربية السمادية جاهزة، وضع الأطفال هذه

التربة في أواني النباتات وزعوا الورود فيها. وأعادوا زراعة الورود التي فقدت نضارتها بعد إصابة أصيصها بكرة قدم طائشة.

ومع ذلك، لم ينته المشروع هناك ليوضع في رفوف خزانة الكتب في الصف، لقد وجد الأطفال كتابا يتحدث عن دودة الأرض بوصفها بطلة؛ لما تقدمه من سماد رائع كان يستخدم لمساعدة النباتات الطبية على النمو، إذ استطاعت أن تكون سببا في إنقاذ حياة بعض الأطفال. فالمعرفة التي اكتسبها الأطفال هذا المشروع ألهمتهم ودفعتهم إلى زراعة حديقة خضراوات في المدرسة، وبناء مشتل لإنتاج النباتات الطبية ([26]).

حقوق الأطفال:

وهنا علينا ألا ننسى عند التفكير في التربية على التنمية المستدامة عند الأطفال أن هذه التربية يجب أن تتمحور حول حقوق الأطفال أنفسهم، حيث يجب على المدرسة أن تعلم الطفل الكيفية التي يدافع بها عن حقوقه والكيفية التي يؤمن بها، وأن يدرك عندما تتاح له فرصة الإدراك أن كل طفل اعتباراً من اليوم الذي يولد فيه يحمل حقوق الإنسان بنفس الكرامة التي يتمتع بها الشخص البالغ، وهذا ما تضمنته الحقوق المنصوص عليها في الاتفاقيات الدولية لحقوق الأطفال.

فالتربية من أجل التنمية المستدامة في مرحلة الطفولة سيكون لها تأثير كبير جدا في حياة الأجيال القادمة، وذلك في مجال ترسيخ حقوق الإنسان والطبيعية والمحافظة على البيئة وحماية المحيط الحيوي للإنسان. ولذلك فمن المنطقي أن نشرك الأطفال منذ نعومة أظفارهم في قضايا الحياة والوجود، وذلك من أجل تحقيق التوازن الضروري بين حق الطفل في الحماية والعمل بصورة مستقلة. وهذا الأمر يتطلب أن يكون المعلمون قادرين وفعالين في خلق مناخ من المساواة بين التلاميذ(27).

يجب على الأطفال العمل على ما هو قريب منهم وما هو متوفر لديهم، ولكن هذا لا يعني أن اهتمامهم وطموحاتهم لا يمكن أن تكون كبيرة ويتم توجيهها نحو العالم، فإن مساهمة وسائل الإعلام والسفر تزيد من معرفة الأطفال ومعلوماتهم حاليا أكثر من أي وقت مضى، وللأطفال الحق في الحصول على المواطنة في الوقت الحالي وفي المستقبل. فبناء المجتمع المستدام "يتطلب تغييرا في العقل والقلب"، كما قيل في ميثاق الأرض، وهذا التغيير لا شيء سيكون أفضل منه عندما نبدأ به في السنوات الأولى من حياة الإنسان

حيث يتم غرس الاتجاهات الإيجابية في نفوس الناشئة والأطفال بالأهمية الكبرى للتنمية المستدامة عبر رعاية البيئة واحترام مكونات المحيط الحيوي للإنسان.

خاتمة:

من المؤكد أن التربية من أجل التنمية المستدامة عند الأطفال تتميز بطابعها الشمولي، فهي نظام يتفاعل فيه الأطفال مع مختلف مكونات المجتمع والبيئة الحيوية التي يعيشون فيها، وضمن هذه الرؤية النظمية للتعليم من أجل الاستدامة تؤخذ مختلف أوجه الحياة الاقتصادية والاجتماعية والبيئية والإنسانية في منظومة تفاعلها وتكاملها بعين الاعتبار. فالتناول التنموي لهذه القضايا وفقا لهذه الرؤية يكون شاملا متكاملا، حيث يتم تناول هذه العناصر في مجموعة واحده كاملة وتتم معالجتها من مختلف الاتجاهات، وتقارب من مختلف المنهجيات والأساليب التربوية كنظام وجودي. وفي مواجهة هذا التحدي النظمي يحتاج المدرسون والمعلمون والمربون إلى خبرة ودراية ومعرفة عميقة بالقضايا التنموية وأنساق تفاعلها وتكاملها وطرائق ترسيخ الوعي الإبداعي بها لدى الأطفال.

وتقتضي الضرورة في مجال التربية على الاستدامة أن تعترف الحكومات بأهمية التعليم المبكر في بناء مجتمع مستدام. وفي هذا السياق يمكن القول إن الأمم المتحدة والمنظمات الدولية والحكومات الوطنية استطاعت أن تحقق نتائج باهرة في مجال بناء وعي كبير بالمشكلات والتحديات التي تضع الحياة على كوكبنا في حالة الخطر. لقد أصبح الناس أكثر حساسية للأخطار التي تهدد البيئة والمحيط الحيوي الذي نعيش فيه. ومع ذلك، لم يدركوا جيدا حتى الآن أن مرحلة الطفولة المبكرة هي المرحلة المميزة لبناء وعي جديد واتجاهات إيجابية حول أهمية البيئة ورعايتها من أجل استدامة الحياة على كوكبنا.

فالتعليم في مرحلة الطفولة المبكرة لم يأخذ مكانه جيدا في بيئة القرارات السياسية والحكومية في مجتمعاتنا. ومن الخطورة بمكان غياب الاهتمام بالتربية من أجل التنمية المستدامة في مرحلة الطفولة المبكرة التي تشكل شرطا ضروريا للتنمية والاستدامة. فالأطفال في بلداننا يأخذون مكانهم كمواطنين ذوي أهمية ثانوية ومن الدرجة الثانية في مجتمعاتنا. وهذا هو السبب الذي يوجب علينا أن نناضل ونستخدم الضغط الاجتماعي لوضع الأطفال في مراحل الطفولة المبكرة على جدول أعمال المنظمات والأحزاب والحكومات، والتأكيد على وجوب النظر إليهم بمنظور المواطنة الكاملة.

ومن هنا تبرز أيضا ضرورة العمل في الميدان السياسي والاقتصادي من أجل الاعتراف بالأهمية الاستراتيجية للسنوات الأولى من الحياة، في تعزيز ورعاية مواقف إيجابية جديدة تجاه البيئة، وتطوير الأنشطة التربوية البيئية المستدامة في مرحلة الطفولة المبكرة.

هوامش البحث ومراجعه

1 - Bruntland, G. (ed.). 1987. Our Common Future: The World Commission on Environment and Development, Oxford: Oxford University Press.

2- World Commission on Environment and Development (WCED, 1987)

3 -World Commission on Environment and Development (WCED), 1987 Our Common Future, Oxford University Press, Oxford. P 43.

4 -Sen. A. K. (2000). The Ends and the Means of Sustainability, Key note. p2.

5- Sen. A. K. (2000). Ibid. P 2.

6-Sen. A. K. (2000). –Ibid. P 1.

7- Sen. A. K. (2000). Ibid. p 6.

8 - Schumacher, E. F. (1999). Small is Beautiful, Economics as if People Mattered, 25 years later... with commentaries, Hartley & Marks Publishers, Inc., Point Roberts.p 139.

9 – World Summit on Sustainable Development (WSSD) convened in Johannesburg in 2002

(ESD) education for sustainable development.

10 - UNESCO (2007) The UN Decade of Education for Sustainable Development: 2005-2014: The First Two Years, Paris, UNESCO. P 6.

11-Dakar Framework for Action (2000).Education For All: Meeting Our Collective Commitments, World Education Forum Dakar April 26-28.

12 –(ESD) education for sustainable development.

13 –UN Convention. (1989). The UN Convention on the rights of the child. New York: United Nations.

14 –John Siraj-Blatchford; Kimberly Caroline Smith; Ingrid Pramling Samuelsson ;(2010) Education for Sustainable Development in the Early Years, Organisation Mondiale Pour L´Education Prescolaire World Organization For Early Childhood Education Organización Mundial Para La Educación Preescolar: pp 10-19.

http://www.327matters.org/Docs/ESD%20Book%20Master.pdf

15 –United Nations General Assembly (UNGA, 2009)

16 - Lee, N. (2005). Childhood and human value. Development, separation and separability. London: Open University Press.

17 - Pramling Samuelsson, I. (2005). "Can play and learning be integrated in a goal-orientated preschool?" Early Childhood Practice: The Journal for Multi-Professional Partnerships. Spring. www.earlyc hildhoodpractice.net 7(1).

18 – Pramling, I. (1996). Understanding and Empowering the Child as a Learner. In D. Olson and N. Torrance. (Eds). Handbook of Education and Human Development: New Models of learning, teaching and schooling. Oxford, Basil Blackwell: 565-592.

19 - Pramling Samuelsson, I., Katz L. (2007) (Eds). The contribution of early childhood education for a sustainable society. UNESCO report no X.

20 - The Earth Charter, Preamble. (ميثاق الأرض، الديباجة)

21 - John Siraj-Blatchford; Kimberly Caroline Smith (2010). Op.cit. pp 10-19

22 - John Siraj-Blatchford. ibid. pp 10-19

23 - - John Siraj-Blatchford. ibid. pp 10-19

24 - John Siraj-Blatchford. ibid. pp 10-19

25 - John Siraj-Blatchford. ibid. pp 10-19

26 - John Siraj-Blatchford. ibid. pp 10-19

27 - Alderson, P. (1999). Human rights and democracy in schools, do they mean more than ”picking up littter and not killing whales”? The International Journal of Children´s Rights. 7: 185-205.